ان منهج التعلم الجماعى للغات الاجنبيه انما هو تجربة جماعية لدرس اللغات الاجنبية مهما كان نوعها . ولكى تكون هذه التجربة التعليمية ناجحة بشكل فعال فانه يجب أن تسير وفق المبادىء التالية:

(1) الاطمئنان النفسى :

ان المبدأ الاساسى الاول فى العملية التعليمية هو مبدأ الاطمئنان النفسى Security كما يحب عالم اللسان النفسى كورن أن يصطلح عليه . فالطالب الذى يلتحق بقاعة الدرس لاول مرة انما تخامره مخاوف عديدة واسئلة متنوعة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلى :

من هو المعلم ؟ من هم هؤلاء الطلاب الذين يجلسون معى فى قاعة الدرس ؟ بل ما هو مستواهم الثقافى والاجتماعى ؟ ما هى درجة معرفتهم باللغة الجديدة التى ينبغى تعلمها ؟ هل هم اكثر معرفة منى بها ؟ ما هو السلوك الذى يجب على اتباعه لكى انال رضاهم وقبولهم ؟ هل ساكون قادرا على نطق الاصوات الجديدة لهذه اللغة دون اثارتهم لحد الضحك والاستهزاء ؟

والواقع ينبغى على المعلم المستشار ان يخفف من وطأة هذه الاسئلة التى تخامر المتعلم الطالب .

وهذا بالطبع لا يعنى تمييع العملية التعليمية بحيث تصبح مواساة المتعلم تشبه مواساة الام لرضيعها . انها فقط عملية تفهمية ملقاة على عاتق المعلم لكى يتفهم مشاعر النقص والتبعية التى يفرضها الجو التعلمى الجديد على الطالب (7) .

ان النتيجة الطبيعية لهذا التفهم هو احساس المتعلم بأن مخاوفه هى فى الحقيقة مخاوف نسبية يعيشها معظم المتعلمين الآخرين . وهكذا تراه عندها يجرؤ على المبادرة اللغوية ويجازف بمساهمته اللغوية المتواضعة فى امن نفسى واطمئنان فكرى .

والحقيقة ان هذه المساهمة التى يبديها المتعلم انما هى استثمار لغوى Linguistic Investment يقوم به الطالب من خلال مساعدة المجموعة له وتحت رعاية المعلم المستشار .

هذا الاستثمار اللغوى يتمثل عادة فى محادثة قصيرة او حوار بسيط تتولد كلماته وجمله من المتعلمين انفسهم . وهكذا فاننا سنرى بعد ذلك المتعلم يشق لنفسه طريقا مستقلا بحيث يصبح فيه نموذجا لغويا حقيقيا يعكس فيه كفاءته التبليغية الناشئة (8) هذا الاستثمار اللغوى يتطلب من كل طالب أن يضم نفسه ضما ايجابيا للمجموعة المتعلمة بحيث يستطيع بعدها استيعاب ما يقوله الآخرون استيعابا منفعلا وفاعلا فى الوقت نفسه .

(2) التأمل اللغوى والانعكاس النفسى :

ان المبدأ الاساسى الثانى هو التأمل الفاعل عند المتعلم والانعكاس المنفعل عند المعلم . وقد سمى كورن هذه العملية بالتأمل والانعكاس اللغوى . وقد قصد كورن من هذه التسمية ثلاثة اشياء :

ا ــ تأمل المتعلم وتفحصه لما كان قد كتب على السبورة بشكل صامت وذلك لكى يتمكن من استيعاب المادة اللغوية المتولدة عن المجموعة المتعلمة بحيث يمكن له أن يجعل تلك المادة اللغوية ملكا له وذلك بشكل تدريجى .

ب ــ ينبغى على المعلم المستشار ان يكون بمثابة المرآة التى يمكن ان تنعكس فيها مساهمة الطالب الكلامية فى اللغة الاجنبية . وذلك بأن يعيد مثلا المعلم صياغة ما قاله الطالب واصلاح خطئه دون أن يشعر ذلك الطالب بأن ذلك الاصلاح اللغوى انما هو موجه اليه بشكل مباشر . ولذلك يجب ان يكون اسلوب المعلم فى هذا الدور الانعكاسى اسلوبا غير مباشر خال من اى اشارة تقييمية قد تسبب له شعورا بنقص الشخصية أمام زملائه .

ج ــ ينبغى على المعلم ان يخصص مدة زمنية محددة يسأل فيها كل طالب ان يشارك اقرانه بكل ما يمكن ان يخالج نفسه من خواطر او تساؤلات ترتبط بتجربته اللغوية فى تلك المرحلة التعليمية وهكذا فان اى تعليق يبدر من اى طالب متعلم انما يصبح بعد تفهم المعلم له ملك المجموعة كلها .

وهكذا فان كل طالب فى المجموعة يدرك بأن ما كان قد اعترض سبيله من صعوبات لغوية او ما كان قد استنتجه من قواعد تخص بنية اللغة المتعلمة انما يتقاسمه افراد المجموعة كلها . وقد يقوم المعلم خلال هذه الفترة الاستشارية الجماعية بايضاح بعض النقاط النحوية او الصرفية المبهمة دون اسهاب مفصل وذلك حتى لا تخلط الامور على الطلبة .

(3) التخزين اللغوى :

ان هذا العامل التأملي والانعكاسي الجدلي بأوجهه الثلاثة انما سيؤدي الى ما اصطلح عليه كورن بالتخزين اللغوي Retention وهو المبدأ الثالث من مبادىء التعلم الجماعي للغات . فبعد أن يشعر الطالب بالاستقرار والاطمئنان النفسي وبعد أن يبدي مساهمته الاولية وبعمل بانتباهه وتأمله لبنية اللغة المدروسة ودلالاتها فانه يأتي دور التخزين اللغوي. ان هذا التخزين اللغوي على حد قول كورن انما هو العملية الاخيرة لهضم المادة اللغوية المتعلمة واستيعابها استيعابا جيدا .

(4) التصنيف والتمييز اللغوي :

ان المبدأ الاخير الذي يستند عليه منهج التعلم الجماعي هو التمييز والتصنيف Discrimination فهذا يعني التعرف على مفردات الحوار وجمله وتصنيفها حسب طرق نظامية وقوانين معروفة . ويجري هذا التمييز عادة بين المتعلمين انفسهم بعد ان ينقسموا الى عدة فرق صغيرة الحجم . بحيث يمكن للمعلم المستشار طوال هذا النشاط ان يستمع لما يقال حول اللغة دون اى تعليق او تدخل شخصي . على انه في الوقت نفسه اذا وقع اشكال او التباس يمكن أن يخل باستنتاجات المتعلمين فانه ينبغي على المعلم ان يقوم بازالته او توضيحه بشكل عرضي غير مباشر ودون اطناب .

ان هذه المبادىء والمفاهيم للعملية التعلمية انما هي بمثابة المقاييس النفسي البيداغوجي الذي يمكن له ان يساعدنا في ضبط التجربة التعلمية لجودتها دون اللجوء الى القسر التعليمي ، بل ينبغي التأكيد على عفوية العملية التعلمية وبساطتها .

ان المنهج الفلسفي التعلمي الذي اخذ به كورن ليس غريبا عن النتائج التي توصلت اليها البحوث الحديثة في ميدان تعلم اللغات الاجنبية واكتسابها .

فكراشن Krashen مثلا حاول ان يبين ان السبب الرئيسي في فشل المتعلمين للغات الاجنبية يرجع في معظم الاحيان الى اصرار المعلمين على التمارين الشفوية المملة المقدمة للطلبة ثم تصحيحهم المستمر للاغلاط الصوتية والنحوية والدلالية . وذلك كبديل للجو التعلمي المناسب الذي يمكن ان يرفد الطلبة بالعناصر اللغوية الاولية التي يمكن تعزيزها بعد التمارين المختلفة (9) .

اما تيلور Taylor فقد حاول من ناحيته ان يبرهن ان فشل المتعلم في اكتساب اللغة الاجنبية وتعلمها في النطاق المدرسي انما يرجع الى اهمال المعلم للفاعليات النفسية التي تموج داخل المتعلم .

وقد اثبت جاردنر Gardner ولامبيرت Lambert وستيفك Stevick بعد تجارب علمية عديدة ان الدعم النفسي والعاطفي من المعلم تجاه طالبه وان ادراك الفاعليات والمتغيرات العاطفية التي تخالج المتعلمين ليس ضروريا فحسب لاكتساب لغة اجنبية ما بل هو ضروري ايضا التغلب على الوجوه السلبية لهذه الفاعليات والمتغيرات العاطفية التي يفوق تأثيرها العوامل الاخرى كعامل ذكاء الطالب وقدرته الكلامية ومؤهلاته الاجتماعية .

4 — منهج التعلم الجماعي للغات : التجربة العربية :

لن ادعي ان التجربة العربية التي اجريتها هي تطبيق نموذجي مثالي لهذا المنهج التعلمي بل هي مجرد وصف لتجربة شخصية كانت قد دامت يومين وقد جرت احداثها بين مجموعة من الطلبة الامريكيين الذين يبلغ عددهم اثني عشر طالبا جاءوا ليحضروا درسا تمهيديا مكثفا للغة العربية كلغة اجنبية . وبما انى كنت في تلك المرحلة ابحث عن القيمة التعليمية البيداغوجية لهذه الطريقة ثم صلاحيتها لتدريس اللغة العربيه لغير الناطقين بها فان التجربة التاليه ستكون تجربة وصفية اكثر منها تجربة تطبيقية بالمعنى العلمي الحقيقي .

(1) تمهيد :

لقد كان معظم الطلاب في هذا الملتقى من الموظفين الامريكيين الذين يعملون في وظائف مختلفة توالي العربية وحضارتها اهمية خاصة ، وقد كانت معرفتهم للغة العربية لا تتجاوز كتابة اسمائهم الشخصية او كتابة بعض المفردات او العبارات المختلفة .

ان المهمة الاولى التي جعلتها نصب عيني هي محاولة صهر هؤلاء الافراد ذوي الشخصيات المختلفة في بوتقة تعلمية واحدة ذات هدف واحد الا وهو تعلم اكثر ما يمكن من العربية في وقت محدد ومكثف. كما حاولت اثناء تقديمي للغة العربية وثقافتها ان اشاطر المتعلمين تجربتي الشخصية عندما تعلمت

الاسبانية . واشاركهم ايضا الصعوبات التى كنت اواجهها آنذاك فى دراستى تلك اللغة .

والواقع لقد كان غرضى الوحيد من كل ذلك هو ان أجعل الطلاب يشعرون باننا كلنا متساوون ومتعادلون عندما نقبل على تعلم اية لغة اجنبية .

(2) الخطوة الاولى : تسجيل المحادثة :

لقد جلس الطلبة على مقاعد قريبة من بعضها بعضا بحيث كونوا حلقة متراصة ثم وضعت فى وسط هذه الحلقة آلة مسجلة صغيرة الحجم مجهزة بـ « ميكرفون » يحمل فى اعلاه ضاغطا صغيرا يمكننا من التحكم فى سير الآلة وعملها . ثم اخذت مكانى خارج الحلقة وسألت الطلبة بان يشرعوا فى محادثة بسيطة باللغة الانكليزية . وكان من المتفق عليه انه كلما اراد طالب ان يتحدث بجملة ما أعطانى اشارة بذلك فاقترب من هذا الطالب واقف وراءه واضعا يدى على كتفه حتى اطمئنه نفسيا وفكريا . وبعد ان يفرغ هذا الطالب من القاء جملته او عبارته الانكليزية اعطيته المقابل العربى لها ، كلمة بكلمة وذلك بصوت هادىء معتدل وعلى مسمع من الطلاب الآخرين . وكلما يسمع الطالب الكلمة العربية منى ضغط على « زر » « الميكرفون » ليسجل اعادته أو نطقه للجملة العربية، ثم يضغط على « الزر » مرة ثانية ليتوقف عمل الآلة وذلك حتى لا يقع تسجيل لصوتى اثناء تلقينى الكلمة العربية الموالية . ثم يعمل الطالب الآلة من جديد ويسجل تكرار ما استمع اليه .

وبعد ان يتم تسجيل هذه المساهمة اللغوية الاولى على هذه الوتيرة ترانى اضغط بلطف على كتف المتعلم اعلاما منى ان دوره قد انتهى وينبغى ان يترك المجال لغيره بالتحدث ، فيضع عندها « الميكرفون » ويتوقف . وبعد عشر دقائق من هذا التفاعل غير المباشر بين اللغة العربية المتعلمة وبين دارسيها حصلنا على شريط تصير سجلت فيه احاديث الطلبة وتكراراتهم للجمل العربية ، على الرغم من انها كانت متقطعة وذلك نتيجة توقيف آلة التسجيل بعد اعادة كل كلمة .

(3) بعض الملاحظات حول تسجيل المحادثة :

ان الهدف المنشود من اجلاس الطلبة فى حلقة متراصة هو تعزيز روح التعاون بين المتعلمين انفسهم . لذلك فاننا نرى ان المعلم المستشار يقف عادة خارج الحلقة وخلف المتعلم حتى لا يرى هذا الاخير اى اشارة تقويمية ايجابية او سلبية قد تصدر عن المعلم وتسبب فى ارتباك الطالب وهو يحاول اعادة ما سمع من المعلم . كما ان وضع اليد على كتف المتعلم تعنى الدعم النفسى من المعلم لما يعيده المتعلم الطالب وهذا مما يدخل على نفسه الطمانينة والامن الذى سبق لنا ذكره .

انه من خلال تجاربى الاولى كمعلم فقد واجهتنى بعض المعقبات والصعوبات فى استعمال آلة التسجيل وذلك لان معظم المتعلمين ليسوا خبيرين فى استعمال (الميكروفون) والضاغط المصاحب له فينتج عن ذلك ان بعض اجزاء الجملة العربية لم تسجل أو ان صوتى قد سجل عفويا وبشكل غير مباشر . وقد لاحظت ان وجود آلة التسجيل قد يثبط من همة بعض المتعلمين الذين لا يرتاحون لسماع اصواتهم المسجلة خاصة وهم ينطقون لغة اجنبية ، ونتيجة لذلك تراهم يترددون فى المبادرة اللغوية فى المراحل الاولية من استعمال آلة التسجيل .

ولقد قسمت الجمل العربية الى عدة اجزاء ومقاطع حتى يسهل على الطالب اعادتها اعادة صحيحة وسليمة فاذا كانت اعادة الطالب لكل الجمل اعادة غير صحيحة فاننى لا الح على تصحيحها مباشرة وذلك لاننى اعتقد بان الطالب عادة يلاقى مثل هذه الاخطاء اللغوية فى الحلقات التالية المخصصة للتمارين الصوتية وغيرها . كما ان التصحيح المستمر للاخطاء اللغوية وخاصة فى المراحل الحساسة من العملية التعليمية قد يخل بتلقائية المحادثة وعفويتها ويضعف الطمانينة النفسية عند المتعلم .

(4) الخطوة الثانية : التامل اللغوى :

1 ـ الاستماع الى الشريط المسجل :

لقد استمعنا الى الشريط المسجل مرتين ، مرة دون انقطاع ومرة كنا نقف عند كل جملة او عبارة عربية وذلك لكى يذكرنا صاحبها بالمعنى العام الذى قصده منها . فاذا ما عجز الطالب عن استحضار المقابل الانكليزى وتذكره تطوعت بصفة عرضية لتذكيره بذلك المعنى .

ب ــ تفهم المعلم واستيعابه لمشاعر الطلبة :

وهكذا بعد الاستماع الى الشريط المسجل اخذت مكاني بين الطلبة الذين لا يزالون جالسين في حلقتهم وقد طلبت منهم ان يشاطرونني واصدقاءهم اي انطباع او ملاحظة تخص تجربتهم التعليمية الى هذا الحد . وقد صارحني معظمهم انهم دهشوا لتمكنهم من نطق بعض الاصوات العربية . وهكذا فقد بادر احدهم بمدح الآخر على ذلك النجاح الذي حققه وقد اخبرني طالب آخر انه كان قد شعر بأن اللغة العربية ليست غريبة عنه رغم انه قد ارتكب بعض الاخطاء اللغوية .

لقد كان موقفي طوال هذه الحصة التعليمية محاديا ، وهكذا كلما وجه الطالب الى سؤالا اجبت عنه اجابة ضافية دونما اسهاب ، وقد كانت اجاباتي تشعرهم بأنني منفهم تماما لما يشغل بالهم حول بنية الجملة العربية ودلالتها .

ج ــ كتابة المحادثة :

استمعنا الى الشريط المسجل القصير مرة ثالثة وقد وقفت هذه المرة امام السبورة وطلبت من الطلبة ان يقترحوا الجمل والعبارات اللغوية التي يودون تعلمها باديء ذي بدء . وقد كان الهدف من ذلك اشعارهم مرة اخرى انهم مسؤولون عما يتعلمون. وهكذا فقد كتبت الجمل العربية مباشرة ببطء وتأن وقد كنت عندما انتهي من كتابة الكلمة انطقها مقطعا مقطعا مبينا كل حرف وحركة وعلاقتهما ببعضهما بعضا .

وقد كان سبق لي ان شرحت لهم خصائص النظام الكتابي العربي واختلافه عن النظم الكتابية الاخرى التي يعرفونها . وبعد ان كتبت الجمل اللغوية قسمتها الى مقاطع بنائية ودلالية ثم كتبت بقلم احمر المقابل الانكليزي تحت كل مقطع لغوي مبينا وظيفته في الجملة العربية . وقد طلبت من الطلبة ان يتفحصوا تلك المقاطع ويتاملوها على السبورة بصمت ولمدة ثلاث دقائق وذلك لكي يتعرفوا ببطء وطمأنينة نفسية خالصة على المظهر الكتابي العربي وكيفية تشخيصه للاصوات العربية . ان الهدف الاساسي من اعلان تلك المدة الزمنية لتأمل المقاطع اللغوية هو اشعارهم بأن خلف كل هذه النشاطات التعليمية التي تبدو غير محكمة في الظاهر ، يبقى المعلم المستشار المسؤول عما يجري في قاعة التدريس ثم تمكينهم من استنباط القواعد النحوية والصرفية واستنتاجها ، تلك القواعد الاساسية التي بنيت عليها الجمل العربية المكتوبة على السبورة ثم لتمكينهم ايضا من اعداد بعض الاسئلة وطرحها في الحصة الموالية .

د ــ التميز اللغوي : تحليل جماعي :

لقد قسمت الطلبة الى اربع فرق تضم كل فرقة ثلاثة طلاب وقد طلبت منهم التشاور فيما بينهم لمدة خمس دقائق ومحاولة ايجاد حلول لبعض الاسئلة التي كانوا قد اعدوها بعد تحليلهم الاولي للمادة اللغوية . وقد كانت الغاية من هذا التشاور تمكين المتعلمين من الاعتماد على بعضهم بعضا والتعبير عما توصلوا اليه من استنتاجات لغوية غير متقيدين بحضور المعلم المستشار بينهم . ويعتقد ستيفك Stevick ان المتعلم قد يكون في بعض الاحيان اكثر كفاءة من المعلم نفسه في الاجابة على بعض الاسئلة (10) .

هـ ــ التميز اللغوي : التأكد من الاستنتاج :

لقد طلبت في نهاية هذا النقاش والتحليل الجماعي من الطلبة ان يشاركوني بما استقر الرأي عليه حول بنية الجمل العربية . وقد كان معظم ما قدموه صحيحا، اما في الحالات القليلة التي كان فيها استنتاجهم خاطئا او ناقصا فاني كنت احاول تصحيحه بنفس الاسلوب العرضي المألوف دون اطناب واسهاب .

و ــ التأمل اللغوي : نسخ النص المكتوب :

بعد الاستماع المتكرر للمحادثة اللغوية وفهمها ودرسها ومناقشتها فقد طلبت من المتعلمين ان ينسخوا نص الحوار . وقد كانت هذه العملية آخر نشاط لغوي لليوم الاول .

ويمثل هذا النشاط اللغوي على حد راي كورن آخر خطوة في الاكتساب اللغوي الذي كان قد ساهموا به وخزنوه في ذاكرتهم وذلك استعدادا لاستثماره من جديد . وقد كان على الطلبة ان يؤدوا عملية النسخ بكل عناية وانتباه وبخط جميل واضح .

وقد ذكرتهم بالجانب الفنى الحالى لرسم الحروف العربية ثم دعوتهم بعد ذلك الى تبادل الاوراق المنسوخة فيما بينهم حتى يتاكدوا مما نسخوه . غير انى جعلت هذا التبادل اختياريا كلما شعرت بان روح المجموعة غير متجانسة وان ثقتهم فيما بينهم ليست ثقة قوية .

(5) الخطوة الثالثة : التعامل مع البطاقات : التامل والتمييز والتخزين اللغوى :

لقد قسمت الطلبة فى اليوم التالى الى ثلاث فرق ثم وزعت على كل فرقة مجموعة ازواج من بطاقات الورق المقوى وقد كان كتب على البطاقة الاولى الكلمة العربية التى وردت فى المحادثة اللغوية وكتب على البطاقة الثانية المقابل الانكليزى . وقد مزجت هذه البطاقات مع بعضها بعضا ووضعت على المائدة المستديرة الموجودة فى وسط كل فرقة وذلك بعد ان اخفى الوجه المكتوب منها . وهكذا يأخذ كل طالب بالتناوب بطاقة من تلك البطاقات ويشرع فى البحث عن المقابل الذى كتب على بطاقة اخرى فاذا كان وجه البطاقة المكشوف يحمل الكلمة الانكليزية فان على الطالب ان يستحضر نظيرها العربى . وبما انه لا احد يعلم موقع هذا النظير اللغوى بين البطاقات المطروحة فانه وجب الاختبار بصفة عرضية . فاذا كان وجه البطاقة المكشوف لا يقابل الكلمة الانكليزية ارجعت البطاقتين الى مكانيهما الاصليين . اما اذا كانت البطاقة الاولى تحمل كلمة عربية فان المتعلم عندئذ يحاول نطقها فان عجز عن فعل ذلك طلب الاستعانة باحد اعضاء فرقته فاذا لم يقدر احد طلب الاستعانة بالمعلم المستشار . وبعد ذلك يشرع فى البحث عن المقابل الانكليزى فى الطريقة نفسها التى ذكرناها .

واذا عثر المتعلم على نظير البطاقة التى فى يده اتيحت له فرصة ثانية وذلك مكافاة على نجاحه فى الفرصة الاولى . ثم يترك المجال بعد ذلك الى المتعلم الثانى وهكذا دواليك .

وبعد ان تفرغ فرقة ما من كشف جميع البطاقات تسحب البطاقات المكتوبة بالانكليزية ويحتفظ بالبطاقات العربية ويشرع المعلمون فى مراجعتها دون العوده الى اللغة الناطقين بها .

وبعد ذلك تتبادل الفرق الثلاث بطاقاتها مع بعضها بعضا وذلك لكى يطلع جميع المتعلمين على كل الكلمات العربية ومرادفاتها الانكليزية .

ينحصر دور المعلم المستشار خلال هذا التمرين فى الاستماع لما يدور بين المتعلمين دونما تدخل مباشر وذلك لتمكين المتعلمين من الاعتماد على انفسهم من جهة والاعتماد على بعضهم بعضا من جهة اخرى . ولكنه فى الوقت نفسه ينبغى على المعلم ان يشعر الطلبة بانه دائما على استعداد لاعانتهم ومساعدتهم.

اما الخطوة التالية فى هذا النشاط المختلف فتتمثل فى تركيب الجمل المفيدة وذلك من خلال استعمال الكلمات العربية التى كان قد استانس المتعلمون بها .

ان هذا المجهود الابتكارى فى تركيب الجملة انما هو مجهود جماعى يتكفل به عضو واحد من كل فرقة وذلك بكتابة الجملة المتفق عليها باحسن خط ممكن. وبعد الانتهاء من كتابة الجملة فاننى اتحول الى الفرقة المعنية بالامر واراجع تلك الجملة العربية مقترحا بعض التغييرات المفيدة هنا وهناك او اننى فى بعض الاحيان اقترح على الفرقة كتابة الجملة من جديد .

وبعد ان تفرغ كل فرقة من كتابة الجمل العربية على هذا المنوال فانها تتبادلها مع الفرقة الاخرى . وبهذا تتمكن كل فرقة من الاطلاع على ما ابتكرته الفرقة الاخرى .

وبانتهاء هذا التبادل الجماعى تنتهى هذه الاستراتيجية التعلمية . وتوضع جميع البطاقات فى صندوق صغير يدعى « بنك الكلمات » الى ان تدعو الحاجة الى استعمالها من جديد وذلك فى مساهمة لغوية قادمة .

ان هذا التمرين اللغوى الذى يشبه الى حد ما لعبة الورق قد مكن كل متعلم دون اجهاد مفرط من التفاعل مع اللغة المدروسة بمفرده اولا ثم بمشاركته الجماعة المتعلمة ثانيا ثم بمساعدة المعلم المستشار ثالثا . وبالاضافة الى الجو التعلمى المكثف الذى توفره هذه الاستراتيجية التعليمية ومتغيراتها فقد لاحظنا ان كل متعلم من خلال احترامه لقواعد هذه اللعبة اللغوية قد احترم نسبيا كل طالب فى تلك الفرق وحتى ان المتقدم والسابق منهم نراه يتبنى موقفا تضامنيا وتعاونيا مع زملائه على الرغم من دوافعه البشرية الغريزية الى اظهار قدرته اللغوية أمامهم .

كما ان التزام المعلم بالتحفظ طوال هذا النشاط اللغوى لا يشجع اى تنافس قد يخل بتوازن

المجموعـــه ككـــل .

(6) الخطوة الرابعة : مخاطبة المعلم المستشار للمتعلمين

ان النشـاط الاخير لليوم الثانى والذى يعتبر الاخير بدوره انما يتمثل فى شبه حديث مجمل يتضمن بقدر الامكان كل الكلمات والعبارات العربية التـــى كان تعرف عليها الطلبة . وقد شرحت للطلاب فى بداية هذا الحديث بأننى لن اطرح عليهم اى سؤال لغـــوى يتعلق بتلك الكلمات والعبارات . بل تنحصر مسـؤوليتهم فى الاصغاء الى ما سوف أقوله ومحاولة فهمه فهما عاما وبعد الحديث الذى استغرق منى حوالى دقيقتين تطوع بعض المتعلمين بتلخيص ما فهمـــوا باللغـــة الانكليزية . وكانت ترجمتهم فى غالب الاحيان صحيحة. وهكذا تبين لى المستوى اللغوى القيم الذى تم تخزينه لـــدى الطلبـــة .

الخـــاتمـــــة :

ان منهج التعليم الجماعى للغات الاجنبية انمـــا هو تجربة تعلمية جماعية تدور نشاطاتها فى قاعـــة التدريس نفسـها وتتألف من حصة كلامية وحصة تأملية تمييزية لغوية . وفى اطار هذه المنهجية التعلمية يكون المعلم المستشار متفرغا تفرغا كاملا لما يدور خارج المتعلم وداخله النفسى .

ان المراحل الاولية لهذه التجربة التعلمية انما هى مراحل حساسة ودقيقة بشكل خاص . لذا يتعين على المعلم الا يطلق العنان للغرائز التعليمية التـــى غرست فيه كمعلم . كاقتراح موضوع للمحادثة او تدريس النحـــو للنحو دون مبـــرر وظيفى مباشر او اصلاح كل هفوة لغوية شاردة او واردة . كما يتعين على المعلم ان يخلق باستمرار علاقة انفية تعلميـــة جماعية ثم يحاول تنميتها حتى لا يترك المجال لظهور اى تنافس سلبى بين المتعلمين . فقد اثبتت البحوث اللغوية النفسية الحديثة ان هذه العلاقة الانفية تساهم اكثر من اى عامل آخر فى تعلم اللغـــات الاجنبيـــة واكتسابهـــا .

اننى لا انكر ما للطرق التعليمية الادراكية او السمعية الشفوية وتمارينها من مزايا فى تبليغ اللغات الاجنبية وتعلمها . كما اننى لا ادعى ان منهج التعلم الجماعى هو القول الفصل فى ميدان تعلم اللغـــات الاجنبية واكتسابها .

ان كل ما ارجوه هو ان تكون تجربتنا هـــذه مدخلا الى منهج جديد يساعد فى تبليغ المعلم ان تدريس اللغات ليس مجرد عملية تقنية وكفاءة لغوية بل انها عملية تتبع قبل كل شىء من قرارة النفس الانسانيـــة للمعلم والمتعلم فى الوقت نفســه .

هوامش البحث :

1) أريد أن أتوجه بالشكر الى الاستاذ مازن الوعر الذى تفضل بقراءته ومراجعته وقد استفدت الكثير من مقترحاته وتعديلاته .

2) نذكر من هذه الطرق الطريقة السمعية الكلامية Audio-lingual Method وطريقة الترجمة النحوية Grammar Translation Method . لمزيد الاطلاع على هذه الطرق راجع : Wilga M. Rivers 1968 Teaching Foreign Language Skills. Chicago University Press P. 13-55

3) لمعرفة التحولات اللسانية من البنيوية الى الذهنية راجع البحث الذى كان قد كتبه مازن الوعر وعنوانه « علم اللسان : من البنيوية الى الذهنية » مجلة المعرفة الدمشقية . السنة 19 ــ العدد 220 / 221 ص 15 ــ 34 . 1980 .

4) لمعرفة ما قاله ستيفيك فى هذا المجال راجع : E. Stevick 1976 ، «Memory, meaning method» Rowley. MA : Newbury House. Publication PP.159 - 160

5) انظـــر : Charles A. Curran. 1976 «Counseling - Learning in Second Languages». Apple River, Illinois Apple River Press.

6) انظـــر : Charles A. Curran 1968 « Counseling and Psychology» Apple River, Illinois, Apple River Press.

7) انظـــر : Karin. Lentzner 1978 «The Community Language learning Approach to Arabic : Theory and Application» «Al-Arabiyya» Vol II, p. 11

8) انظـــر : C. Curran Counseling-Learning - New York, PP. 14-16

9) انظـــر : Stephen Krashen, 1976 «Formal and Informal Linguistic Enviroments in language Learning» Tesol Quarterly Vol 10. p. 159

10) انظـــر : Stevick 1976. «English As An Alien Language» In John F. Fanselow and H. Crymes (eds) Tesol 1976. P.6.

ثبت المراجع

المراجع العربية :

١ ــ مازن الوعر :
« علم اللسان من البنيوية الى الذهنية »
المعرفة الدمشقية السنة 19 ــ العدد
220 ــ 221) 1980 .

المراجع الاجنبية :

2 - Brown, D.A. "Affective Variables in Second Language Acquisition" Language Learning, Vol. 23. 231-244, 1973.

3 - Curran, C.A. Counseling and Psychotherapy : The Pursuit of Values. Second edition. Illinois : Apple River Press, 1978.

4 - ..... Counseling-Learning in Second Languages. Illinois : Apple River Press, 1976.

5 - ..... Counseling-Learning : A Whole-Person Model for Education.
New York : Grune and Stratton. 1972.

6 - Gardner, R.C. and W.E. Lambert. Attitudes and Motivation in second Language Learning.
Massachusets : Newbury house, 1972.

7 - Gattegno, C. Teaching Foreign Languages in Schools : The Silent Way
Second edition. New York : Educational Solutions, Inc, 1972.

8 - Krashen, S.D. "The Monitor Model for Adult Second Language Performance."
IN : Viewpoints on English as a Second Language.
Edited by M. Burt, H. Dulay and M. Finocchiaro.
New York : Regents, 1977. 152-161.

9 - ..... "Formal and Informal Linguistic Environments in Language Learning and Language Acquisition."
TESOL Qarterly. Vol. 10, 1976. 157-168.

10 - Lozanov, G. Suggestology and Outlines of Suggestopedy. New York : Gordon and Breach, 1979.

11 - Nida, E. "Socio-psychological Problems in Language Mastery and Retention."
IN : The Psychology of Second Language Learning. Edited by P. Pimsleur and T. Quinn. Cambridge : Cambridge University Press, 1971. 59-65.

12 - Rogers, C.P. Carl Rogers on Encounter Groups. New York : Harper Row, 1970.

13 - Ryding-Lentzner, K. "The Community Language Learning Approach to Arabic : Theory and Application. "
al-Arabiyya, Vol. 11, 1978. 10-14.

14 - Rivers, W.M. Teaching English Language Skills. Chicago : University of Chicago 1968.

15 - Ryding-Lentzner, K. "The community Language Approach to Arabic : Theory and Application." al-Arabiyya. Vol. 11, 1978. 10-14.

16 - Stevick, E. A Way an Ways. Rowley, Massachusets : Newbury House,1980

17 - ..... Memory Meaning and Method. Rowley, Massachusets : Newbury House, 1976.

18 - ..... "English as an Alien Language." IN : on TESOL 76. Edited by J. Fanslow and R.H. Crymes. Washington, D.C : TESOL.

19 - Taylor, B. "Toward a Theory of Language Acquisition." Language Learning. Vol. 24, 1974. 23-36.

تكوين الفكر الغربي قبل الاسلام

- 6 -

د. رشاد محمد خليل

الفصل الثاني

تصور الوجود في الفكر العربي قبل الاسلام

في الفكر العربي :

يندرج تحت عنوان الوجود في الفلسفة القديمة مبحثان هما : الطبيعة ، وما بعد الطبيعة ، ويدور المبحث الاول حول العالم وعلله واسبابه وقوانينه وتراكيبه .. الخ ، ويدور المبحث الثاني حول الالهيات ، اى الله باعتباره علة وضرورة لهذا العالم ، وذلك في المباحث التي فصلت بين العالم والله او حاولت ذلك مثلما فعل افلاطون وارسطو ومن تابعهما ، اما في المباحث التي جعلت الله والعالم شيئا واحدا كما هو الحال عند الماديين والآليين فمبحث الوجود يبحث العالم والله في مبحث واحد لا مبحثين منفصلين .

اما العرب كما سنرى فقد اخرجوا الله من مبحث الوجود اصلا ذلك لانهم لم يتصوروا الله وجودا على اى وجه من هذه الوجوه لا خارج العالم ولا داخله ، ذلك ان الوجود عند العرب يعني معنيين : اولهما الابتداء في زمان ثانيهما اكتساب شيء لم يكن .. « يقال اوجده الله اغناه ، والواجد الذي يجد ما يقضي به دينه ، وهذا من وجدى اى قدرتي ، ووجد الشيء عن عدم ، واوجده الله أعطاه ، ووجد غضب ، ووجد حزن » (1) وفي كل هذه المعاني الوجود معناه ابتداء في زمن ، وهو في نفس الوقت اكتساب شيء لم يكن. وعليه فمن الخطأ ان يقال في العربية : الله موجود اولا للمعنيين السابقين وهما : الابتداء في الزمن ، واكتساب الوجود الذي لم يكن ، وثانيا لان موجود اسم مفعول بمعنى اوجده موجود ولا يقال ذلك في حق الله عند العرب .

من اجل هذا جعلت هذا المبحث قاصرا على تصور الوجود عند العرب واليونان بمعنى العالم ، وجعلت مبحث الفكرة الدينية الخاص بالله وصفاته مستقبلا .

ولكني مع ذلك ساستعمل معجم الفكرة الدينية نفسه ومن وجه آخر ، في الكشف عن تصور العرب للوجود مع الاستعانة بما يحتاجه البحث من دراسات لغوية وفنية للشعر القديم (الجاهلي) في اطار اوسع وحين نعيد التعامل مع معجم الفكرة الدينية نكتشف فيه الحقائق الآتية :

1 — تصور العرب العالم مخلوقا ومصنوعا ، ولان خالقه وصانعه وبارئه ومبدعه ومصوره هو الله

تعالى ، وذلك لانهم اثبتوا لله كما سبق ان راينا صفات الخالق والصانع والبارىء والمصور والمبدع ، وتعنى هذه الصفات الخلق ابتداء ، والايجاد من العدم ، ذلك ان الخلق لغة التقدير ، يقول زهير :

ولانت تفرى ما خلقت وبعـ
ـض القوم يخلق ثم لا تفرى

ومعنى تفرى ما خلقت ، اى تنجز ما قدرت على احسن وجه ، وخلق الله الخلق بخلقه خلقا احدثه بعد ان لم يكن وفق تقديره ، فالايجاد من عدم احد معانى الخلق ، ويلاحظ هذا المعنى فى الاشتقاقات التى يراد بها الاختراع ، ولذلك يقال الخلق بمعنى الكذب ، والعرب تقول حدثنا فلان بحديث الخلق ، وهى الخرافات والاحاديث المنتحلة . ورجل خالق اى صانع ، وعلى هذا المعنى يكون الخالق قد خلق العالم وفق تقدير قدره ، والعالم الخلق (اللسان ج 1 ص 86 / 87) وكذلك الحال فى البارى والصانع والمبدع والمصور ، غيرا معناها خلق ، والمبدع الذى يبتدع الشىء ابتداء اى ينشئه ويبداه (اللسان ج 8 ص 6) ، اما المصور فهو الذى ينشىء الاشياء فى شكل (اللسان ج 4 ص 473) ، والصانع هو الفاعل لان صنع معناها فعل (مختار الصحاح ص 371) ، والصانع والمصور وان لم يتضح فيهما معنى الخلق ابتداء — اى من العدم — فانه يتضح فيهما معنى الخلق عامة وتحويل الشىء ووضعه على شكل وصورة . فالعالم اذن ليس قديما بأى معنى من معانى القدم عند العرب ، اى انه خرج من العدم المحض ، واوجده الله ابتداء حيث لم يكن موجودا من قبل على صورة من الصور .

2 — تصور العرب العالم مخلوقا ومصنوعا ومبدعا على غير مثال سابق ذلك ان من معانى الخلق ايضا ابتداع الشىء ابتداء على غير مثال سابق عليه ، فالخلق فى كلام العرب على معنيين احدهما التقدير كما سبق والثانى الخلق على مثال ابدعه اى اخترعه (اللسان ج . 1 ص 86) ، وكذلك لفظ المبتدع له معنيان احدهما ما سبق وهو الانشاء ابتداء والثانى : ان بدعت الشىء ابتدعته لا على مثال (اللسان ص 6) . واذن فالعالم لم يسبقه نموذج او مثال يحاول ان يقلده وان يصنع نفسه ويشكلها على مثاله : فقبل العالم لم يكن ثمة الا الله .

3 — ولكن اذا كان العالم قد خرج من العدم المحض لا على مثال سابق . ولا من هيولى ابديه ، ولم يكن نتيجة حركة ازلية لمادة ازلية ، فكيف خرج من العدم المحض . يقول العرب فى ذلك ان العالم قد خرج من العدم المحض الى الوجود باذن الله ومشيئته وقدرته وارادته . ولذلك سموا العالم والمخلوقات اشياء ومقدرات لانها وجدت وخلقت بمحض القدرة والمشيئة . فالقدير والقادر من صفات الله يكونان من القدرة ويكونان من التقدير ، والقدرة من الفعل قدر . فالقادر اسم فاعل من قدر يقدر (اللسان ج 5 ص 74) . وكذلك الشىء من المشيئة اى الارادة شئت الشىء شاءه شيئا ، فكل شىء بمشيئة الله وباذنه اذا اراده او أشاءه قدر عليه بقدرته فاخرجه من العدم الى الوجود بمحض قدرته ومشيئته التى اذا ارادت شيئا كان بعد ان لم يكن .

4 — وقد خلق الله العالم واخرجه من العدم المحض الى الوجود بمحض قدرته وارادته ومشيئته دون وسطاء من آلهة او ارباب آخرين لهم معه مشاركة فى خلق او انشاء او تقدير او تدبير لانه فى ذلك واحد لا شريك له ، فالله فى هذا ليس له شريك فى اعتقادهم كما سبق ان سجلنا . اما الشركاء او الآلهة الذين دعوهم معه فهم مجرد شفعاء كما سبق ان سجلنا ايضا .

5 — اعتقد العرب ان فى الاشياء والمخلوقات فطرا وطبائع ليست لازمة لها من نفسها ولا من محض وجودها ، وليست ضرورة لازمة عنها ، وانما هى فطرة وطبيعة اقتضتها مشيئة الله وارادته التى خلق كل شىء على صورة الزمه اياها ، وطبيعة على خليقة وسجية يكون عليها ، والخلقة لغة الفطرة والطبيعة والسليقة بمعنى واحد (اللسان ج 1 ص 86) ، وطبعه الله على الامر بطبعه طبعا فطره ، وطبع الله الخلق على الطبائع التى خلقها فانشأهم عليها ، وهى خلائقهم تطبعهم طبعا (اللسان ج 8 ص 232) ، والفطر الابتداء والاختراع والفطرة

منه الحالة ، والمعنى انه يوجد على نوع من الجبلة والطبع (اللسان ج 5 ص) .

6 — والاشياء في الوجود مقدرة تقديرا اى تجرى على سنة ونظام لا بمحض الصدفة والاتفاق ، فكل شيء مخلوق له نظامه ، وقدره هو طبيعته وخلقته وفطرته وجبلته كما سبق القول ، والعالم كله يجرى على سنن ونظام ، قضاه الله وقدره تقديرا ، وذلك لازم من وصفهم لله بالقادر المقتدر ، ومن تفويضه لهم في قضائه وقدره ، وقضى : حكم وقدر الحكم ايضا ، فالقدر ليس قوة حاكمة على الله والعالم ، يخضع لها الله والعالم بمقتضى الضرورة في النظام او القانون، وانما القدر عند العرب هو قضاء الله وقدره في العالم كما سبق القول في مبحث الفكرة الدينية.

7 — وقضاء الله وقدره عدل ، وان جهل الانسان الحكمة ايضا ، والله بقضائه وقدره العدل يخفض في العالم قوما ويرفع آخرين ، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ويمنح ، ويمنع ، ويعطي ويأخذ ، ثوابا او عقابا ، او لحكمة يعلمها ، ولكن حكمه عدل في كل حال ، وامره نافذ على اى حال ، ولكن امره وحكمه وقضاؤه وقدره مصحوب برحمته لانه رحمن رحيم .

8 — والله لم يخرج العالم من العدم المحض الى الوجود وكفى ، ولم يبدعه على غير مثال سابق وكفى . ولم يفعل ذلك باذنه ومشيئته وكفى ، ولم يطبع الاشياء على طبائع وجبلات وكفى ، ولم يحكم الكون وينظمه بمقتضى سنن ونظم وقوانين تعمل فيه وتعمل في الاشياء بحكم طبائعها وكفى . ولكنه متصرف في العالم ابدا ، عالم به ومحيط بكل ظاهر وخفى فيه ابدا ، يرى ويسمع ويراقب ويشهد ، ويرعى الخلق كله جليله وخطيره ، فيمنع ويمنح ويعطي ويأخذ ويثيب ويعاقب كما سبق القول ، ويرزق ويعين ويساعد ، وذلك بمقتضى انه المانع المانح ، المعطي الوهاب ، الذى يجزى على الخير والشر ، الرزاق المعين ، المؤمن (الذى يؤمن الخائف) . فهو لم يخلق العالم ثم يتركه لنفسه، ولا لسننه وقوانينه ، ونظمه وطبائعه ، رغم انه اودع فيه ذلك كله ، ولكنه يصرفه ابدا ويدبره ابدا ، ويحكم فيه ويقضى ابدا ، فهو المدبر والمتصرف والحكم العدل .

9 — والله لم يخلق الخلق ابتداء ودفعة واحدة ثم اخذ يدبره ويصرفه ، وانما خلقه اطوارا وحالات، فالخلق عملية دائمة مستمرة ، والانشاء والاعدام قائم ابدا ، وصفات الخالق والبارىء والصانع اسماء وافعال تلزم صاحبها ابدا ، فقد كان الله وما يزال خالقا وبارئا وصانعا ، وقد كان وما يزال مبدعا ومصورا لان هذه اسماء آلة تلزم صاحبها ما دام قائما ، ولذلك قال قيس بن الخطيم :

قضى لها الله حين صورها الخالق الا لا يكنها سدف (2) .

فهو يخلق دائما ، ويخلق في كل وقت

10 — وهو لا يقضى ويدبر ويتصرف في خلقه في غيبة عنهم او من بعد ، وانما يقضى ويتصرف ويدبر ، وهو قريب منهم ، يسأله الخلق فيجيبهم ، ويدعونه فيستجيب لهم ، ويلجاون اليه فيحميهم ، ويستعينونه فيعينهم ، ويستعيذونه فيعيذهم ، فهو المسؤول ، والمعيذ ، والمعين ، والملجا ، فهو قريب من عباده ، بلا حاجز ، وبلا واسطة .

السنن التي لاحظها العرب في الوجود :

ذلك هو تصور الوجود في الفكر العربي كما تكشف عنه دراسة معجم الفكرة الدينية ، ولكن الدراسة الواسعة المفصلة للشعر القديم تكشف لنا ايضا عن بعض السنن والنظم والقوانين التي لاحظها العرب في الوجود وسجلوا ملاحظتهم عنها ، وكان لاعتبارها عندهم اكبر الاثر في فكرهم واخلاقهم ، وهي وان كانت موجودة في معجم الفكرة الدينية اجمالا الا انها موجودة في الشعر بتفصيل شديد نحاول ان نشير اليه وننبه الى طريقة تتبعه واستخراجه .

وقد سبق من هذه الملاحظات ما يخص النفس الانسانية في معجم النفس ولا نحب ان نعود اليه وانما ننبه الى انه يدخل من هذا الوجه في مبحث الوجود ، وقد سجلنا هناك ما لاحظوه من صفات النفس والعقل ووظائفهما واسلوب عملهما ، وما فطرت عليه النفس من خير وشر ، وما فطر عليه العقل من حكم وتمييز وضبط (دون تحديد ماهيات او تقسيم اجناس) وهو يعطينا صورة وافية عن ملاحظة العرب لقوانين الله وسننه في فطرة النفس

وجبلتها وطبيعتها . ونكتفي بالاشارة الى ذلك في مكانه هنـــاك .

اما الجانب الذي نحب أن نتكلم عليه هنا فهو (السنن) العامة أو (قوانين) الوجود .

الحركـــة ،،، الزمـــن ،،، الدهـــر :

سبق أن لاحظنا في دراستنا لصيغ الزمن في الافعال أن العرب بنوا هذه الصيغ على أساس مـــن تصور الزمن حركة مطلقة ولا يقطعها سكون ، وإنما هو ديمومة مستمرة يتعلق بها الفعل من ناحية استمراره هو وانقطاعه ، ولكنه لا يتعلق بالزمن باعتبار الجهة لان (صيرورة) الزمن ، اي ديمومته المطلقة ليس فيها جهة ، ليس فيها ماض وحاضر ومستقبل ، لان هذا التقسيم خاص بالفعل لا بالزمن ، فالزمن نفسه يجري باستمرار ، ولكن الفعل هو الذي يستمر أو ينقطع والفعل في حالة اتصاله بالزمن لا يتبين فيـــه الحاضر لان التحول المستمر من المستقبل الى الماضي يلغي الحاضر ، وقد لاحظنا في دراستنا للاستخدامات الفنية لهذا التصور كيف داخل الزمن (المسافة الزمنية) والتي تسمى بالايجاز في التركيب الفني للقرآن والشـــعر ، ولكن ابعاد هذا التصور لم تقف عنـــد الاستخـــدام اللغوي أو الفني وانما تجاوزتها الى ابعاد فكريـــة واخلاقيـــة .

ولم يفصل العرب في تصورهم بـــين الحركـــة والزمن ، وانما جعلوها شيئا واحدا سموه الزمـــن وسموه الدهر ، اما الساعات والايـــام والليالـــي والاعصـــر ، فهو تقسيم لمقياس الحركة الدقيقة المنضبطة في الكون . ولكنها ليست شيئا آخر بجانب الحركة نفسها ، واذن فالدهر أو الزمن هو الحركة نفسهـــا سواء نظرنا اليها في اطلاقها أو قياسها .

شمول سنة (قانون الحركة (الزمن أو الدهر)

لاحظ العرب أن الحركة التي سموها (الزمن . الدهر) هي قانون الوجود الاساسي ، وبها يرتبط كل شيء وجودا وعدما ، خلقا وافناء ، حياة وموتا صغرا وكبرا ، شبابا وهرما ، خصبا وجدبا ، فهي شاملة للموجودات كلها المادة والحياة ، الظواهـــر المتغيرة ، والظواهر الثابتة ، اي كل شيء في الوجود السحاب والجبال ، النبات والحيوان ، والانسان ، الصحة والمرض ، الغنى والفقر .. الخ ، فليست هناك ظاهرة في الوجود تفلت من سلطان الزمن او سطوته او قضائه المحتوم ، وفي حيز ضيق مثل هذا لا يمكن تفصيل هذا البحث ، وحسبنا أن نعطي صورة واضحة عنه بقدر الامكان .

ونحب ان ننبه الى ان هذا التأثير العميق في الوجود لا يأتي للزمن من مجرد جريانه المستمر ، او حركته الدائبة ، والتي صورها ابو ذؤيب بقوله :

هـــل الدهـــر الا ليلـــة ونهـــارهـــا
وآلا طلـــوع الشمس ثـــم غيـــارها

وانما لان هذه الحركة قد ارتبطت بسنة اخرى او قانون آخر هي سنة او قانون التغيير .

سنـــة (قانـــون) التغيـــر :

تشمل هذه السنة (القانون) كافة اشكـــال الوجود كما سبق القول ، وقد سجلنا الشعر وكافة ظواهر التغير التي احاطت بهم في الشعر ومنها :

الخصب والجدب في الاماكن ، والعمران والخراب في المـــاكن ، ولم يتنبه احد فيما اعلم الى القيمـــة الفكرية الكبيرة للقصائد ذات المقدمات الطللية ، التي سجلت حس العرب العميق بتداول الحياة ، وتبدلها ، في قانون صارم ، وذلك ان كل ما استلفت نظر الباحثين هو الدلالة الفنية للمقدمات الطللية ، ولما راوا الشعراء جميعا يقفون في كثير من شعرهم تكلموا عن التقليـــد الفني وهو افتتاح القصائد بمقدمة تقليدية تتمثل في الوقوف على الاطلال ، وتكلموا عن الجمود الفني الذي استازمه هذا التقليد ، وعن المعاني المتكررة الملـــة والمتكلفة في هذا الوقوف . الخ .

ولا اريد ان اخوض في هـــذا البحث الطويـــل في اساليب الشعر القديم (الجاهلي) لانها دراسة واسعة ليس هذا مجالها ، وانما انبه فقط الى القيمة الفكرية الكبيرة لهذه الوقفات الطللية .

المقـــدمـــة الطللـيـــة :

تبدأ المقدمة الطللية برسم صورة الماضي فـــي مشاهد درامية ذات طابع مسرحي فهي تبدأ احيانا بطلب (ديلولوجي) حواري يخاطب فيه الشاعر صحبه

فردا او جماعة مثل قول امرىء القيس فى مطلع معلقته :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقول النابغة فى مطلع معلقته الثانية :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار
ماذا تحيون من نؤى واحجار

او مطلع معلقته الاولى :

يادار مية بالعلياء فالسند
اقوت وطال عليها سالف الامد

او تبدا بمنولوج يناجى فيه الشاعر نفسه كما فعل عنترة فى مطلع معلقته وهو :

هل غادر الشعراء من متردم
أم هل عرفت الدار بعد توهم

او كما فعل زهير فى مطلع معلقته وهو :

امن ام اوفى دمنة لم تكلم
بحومانة الدراج فالمتثلم

وكما فعل الاعشى فى مطلع معلقته وهو :

ما بكاء الكبير بالاطلال
وسؤالى فهل ترد سؤالى

او يرسم صورة المكان (المسرح) تمهيدا للمنولوج مثل قول لبيد فى مطلع معلقته :

عفت الديار محلها فمقامها
بمنى تأبد غولها فرجامها
فمدافع الريان عرى رسمها
خلقا كما ضمن الوحى سلامها
دمن تجرم بعد عهد انيسها
حجج خلون حلالها وحرامها

الى ان يقول :

فوقفت اسألها وكيف سؤالنا
صما خوالد ما يبين كلامها

كما فعل طرفة فى مطلع معلقته حيث يقول :

لخولة اطلال ببرقة ثهمد
تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد
وقوفا بها صحبى على مطيهم
يقولون لا تهلك اسى وتجلد

وقد يقف على الديار متاملا كما فعل عبيد فى مطلع معلقته حيث يقول :

اقفر من اهله ملحوب
فالقطبيات فالذنوب

والهدف من هذا الوقوف بصوره المختلفة هو استحضار الماضى فى صورة درامية عن طريق استيحاء مشاهد قديمة دارت احداثها فى هذا المكان حيث هذه الاطلال ، ولذلك يستتبع الوقوف عادة مشهد الرحيل، واستحضار صورة الحبيبة الراحلة او كليهما معا ، كما ان الوقوف نفسه اما ان يكون رمزا للذهاب المطلق اى الذهاب الى غير رجعة ، وهنا يكتفى الشاعر بابراز المعالم التى عفا عليها الدهر فى المكان ، او يكون وقوفا يرمز الى تداول الحياة بين الاقبال والادبار ، والفناء والتجدد فتختلط آثار الذاهبين بالحياة الجديدة فى صورة الظباء والنعام والشجر وبعر الارام .. الخ وذلك لتعميق الاحساس ببعد العهد بالذاهبين من ناحية ، ولتاكيد معنى التجدد من ناحية اخرى .

ولان الموقف موقف ذاتى بحت رغم وحدة الموقف نجد ان لكل شاعر طلله او اطلاله الخاصة ، التى تعكس موقفا تامليا فى حالة نفسية خاصة ، ولا يتسع المجال هنا لايراد نصوص كاملة ولذلك نحيل على مقدما تالقصائد الطللية لان فيها تفصيل ما ذكرناه .

وبتطبيق هذا التصور على مجال خاص هو مجال التاريخ ، نلاحظ ان العرب قد سجلوا بكثير من التامل والاعتبار ما يلحق الحياة والاحياء من تبدل عبر العصور ومن نماذج هذا التامل العميق فى تبدل المصائر والاحوال بتاثير الدهر الدوار والزمن السيار قول ابو الصمعان

القتيبـــى :

ان الزمـــان ولا تفنـــى عجـــائبـــه
فيـــــه تقطـــــع آلاف وافـــران
امست بنـــو القيـــن افـــرادا مشتتـــة
كانهم من بقـــايـــا حـــى لقمـــان (3)

ويقول سليمان بن ربيعة معتبرا بمصائر العرب جميعا من يمانيين وشماليين :

مـــا لـــذة العيـــش والغنى للدهـــر
والـــدهـــــر ذو فـــنـــــون
اهلـــك طسمـــا وقبـــل طســـــم
اهلـــك عـــــادا وذا جـــــدون
واهـــل جـــاش ومـــــارب
وهـــى لقمـــان والتقـــــون

ويقول الاسود بن يعفر النهشلى متعزيا :

ان المنيـــة والحتـــوف كـــلاهمـــــا
يوفـــى المخـــارم يرقبـــان ســـوادى
لمن يرضيـــا منـــى وفـــاء رهينـــة
مـــن دون نفســـى طـــارقى وتـــلادى
ماذا أؤمـــل بعـــــد آل محـــــرق
تـــركـــوا منـــازلهـــم وبعـــد ايـــاد
اهـــل الخـــورنـــق والســـدير وبـــارق
والقصـــر ذى الشـــرفـــات من ســـنداد
ارضـــا تخيـــرهـــا لـــدار ابيهـــــم
كعب بـــن مامـــة وابـــن ام دواد
جـــرت الريـــاح علـــى مكـــان ديارهم
فكأنمـــا كـــانـــوا علـــى ميعـــــاد
ولقـــد غنـــوا منهـــا بانعم عيشـــة
فـــى ظـــل ملـــك ثابت الاوتـــــاد
نزلـــوا بانقـــــرة تسيـــل عليهـــــم
مـــاء الفـــرات يجـــىء مـــن اطواد
ماذا النعيـــم وكـــل مـــا يلهـــى بـــه
يـــومـــا يصيـــر الـــى بلى ونفـــاد (4)

على انه من حسن الحظ ان نجد قصيدة واحدة تشمل كثيرا من ضروب التغير والتحول والمصير الحتمى الذى تنتهى اليه مختلف ظواهر الحياة فى الوجود ، ونحن نقدم هذه القصيدة هنا لنحقق بها هدفين ، الاول : هو الذى نحن بصدده اى شمول سنة التغير وحتمية المصير ، والثانى : وهو تقديم نموذج للاسلوب الذى يجب اتباعه فى دراسة الشعر القديم (الجاهلى) لاستكشاف قيمته الفنية والفكرية ، وهو اسلوب يخالف تماما الاسلوب الذى يدرس به هذا الشعر الى وقتنا هـــذا .

معلقة عبيد بن الابرص من رواية الخطيب التبريزى :

لهذه القصيدة طابع خاص يكاد ان يكون فريدا فى بابه فى الشعر القديم ، فهى اقرب فى نسجها الى اسلوب (الاوبرا) الحزينة ، فهى نوع من البناء المعقد الذى يشترك فيه الحدث والمنولوج والسرد فى خلق رمز كلى مركب من عدة رموز تخضع كلها لنسق لحنى خاص تحكمه قافية تتناوب فيها الواو والياء لتحقيق قرار عميق يحس به المرء حين ينشد القصيدة محققا المد فى الواو والياء تحقيقا كاملا ، وقيمة هذا الرمز المركب من هذه المشاهد الدرامية والسرد معا ، بالاضافة الى اللحن ذى القرار العميق انه ليس رمزا لشىء ، ذلك انه رمز لا يفضى الى موضوع او عرض على طريقة الشعر القديم (الجاهلى) فى استخدام الرمز ، وانما هو رمز مطلق مقصود لذاته لانه معادل لكل وجودى شامل اكبر من هلوم الارادات الفردية ومشكلاتها واحداثها ، تحقيقا لرغبة او طموحا الى غاية ، او تعزيا عن مصيبة .. الخ ، واكبر مشاغل الحياة الاجتماعية هجاء او فخرا ، حربا او سلما ..

هذا الكل الذى يجسده هذا الرمز ويعادله هو الحياة فى تاكدها الحتمى بالفناء والعدم والموت ، حيث تكمن (مأساويتها) بالنسبة للانسان هذا الكائن العاقل فى صيرورتها المطلقة ، فنحن هنا امام معادلة كلية تقابلها بمعادلة امرىء القيس فى معلقته فى اتجاه آخر ، فهذه القصيدة تتقابل وقصيدة قفا نبك لامرىء القيس والتى لا نستطيع تقديمها لضيق المجال — فى تصور الحياة ، فعند امرىء القيس نجد التاكيد على معنى التجدد فى الحياة بالصيرورة ، ومن هنا كان هذا التفاؤل الكبير الذى يشيع فى جو القصيدة ، وهذا الفرح العظيم بالحياة والذى تنبض به القصيدة ، بينما نجد هنا فى قصيدة التفر من اهله ملحوب لعبيد التاكيد على العكس ، اى التاكيد على معنى الفناء فى الحياة بالصيرورة ، ومن هنا هذا الحزن الماسوى الذى يشيع روح العويل فى القصيدة ، فعند امرىء القيس تتغير

الحياة حقا وتفنى ، ولكنها لا تنفك تتجدد ابدا ، وهنا منذ عبيد تتجدد الحياة حقا ، ولكنها لا تنفك تفنى وتتبدد.

تبدا القصيدة بحركة سينمائية سريعة فى المكان الواسع لا ترصد فى المكان ذكريات ولا آثار حياة جديدة ، وانما ترصد معنى مطلقا هو الخراب الذى يتمثل فى كلمة اقفر ، ثم تسكن الحركة على معنى الخراب لتستقصيه فقد ذهب الجميع ، وحل محلهم الوحش تاكيدا للخراب الشامل ، وغيرت حالها الاحداث والخطوب : فهى ارض توارثتها الجدوب ، كأن لم تغن بالامس قط ، ولم تتداولها الحياة ابدا فكل من حلها محروب : اى مضيع مسلوب ، اما قتيلا ، واما هلكا واما شيبا : والشيب شين لمن يشيب :

اقفر من اهله ملحوب
فالقطيعات فالذنوب
فعراكيس فثعيلبات
فذات نرقين فالقليب
فعمرة فتفار حبر
ليس بها منهم عريب
وبدلت من اهلها وحوشا
وغيرت حالها الخطوب
ارض توارثها الجدوب
فكل من حلها محروب
اما قتيلا واما هلكا
والشيب شين لمن يشيب

فهذه الارض ليست ارضا بعينها ، وانما هى ارض البشر كلهم بمن فيها وعليها ، ويفجع الشاعر بهذا الفناء العميم الرهيب ، فيبكى بكاء شديدا مرا ثم يستفيق من فجيعته ليجد نفسه مستغرقا فى هذا البكاء المر ، فيجسد موقفه واحساسه المأسوى بالفناء فى هذا المنولوج :

عيناك دمعهما سروب
كان شانيهما شعيب
واهية او معين معش
من هضبة دونها لهوب
او فلج واد ببطن ارض
للماء من تحته نسيب
او جدول فى ظلال نخل
للماء من تحته منكوب

هذه الدموع الغزيرة كلها والتى تجرى عيونا وشلالات وانهارا ، ليست دموعا على شىء خاص ، او امام شىء بعينه ، انما هى دموع الفجيعة الكبرى امام مشهد الفناء المطلق الشامل الرهيب ، وامام هذا التغير الابدى الحتمى الذى لا يبقى حالا على حاله ، والذى يستقصيه الشاعر فى مظاهره المختلفة فى هذه الصور المتناقضة التى يخلف فيها الفناء فى شتى صوره واشكاله دائما مظاهر الحياة الزوال ، مما يدفع بالشاعر الى السخرية من نفسه على حرصه على الاستمساك العقيم بهذه الحياة المدبرة ابدا ، الذاهبة ابدا :

تعيبو وانى لك التعابى
ابنى وقد راعك المشيب
فان تكن حال اجمعها
فيلا بيدى ولا عجيب
فكل ذى بعية مخلوس
وكل ذى ابيل مكذوب
وكل ذى ابل مورث
وكل ذى سلب مسلوب
وكل ذى غيبة يؤوب
وغائب الموت لا يؤوب

ان الشاعر فى هذا المقطع من المنولوج لا يقرر ، ولا يسرد حكما فى الحياة وتداولها بين الاحياء ، ولكنه يكشف عن طريق استعراضه الواسع لمجموعة من صور التداول بين النعمة والحرمان احساسنا بشمول سنة التبدل ، فهو يستعرض تجربة الحياة كلها فى مجموعة من الصور المستخلصة المركزة ، التى ترسم بتتابعها صورا درامية تعمق الحس المأسوى بالحياة الى اقصى مداه وحين يفرغ من رسم هذه الصورة للفناء المطلق يستوقفه شىء فى معنى التبدل ذاته شىء فى قيمة التبدل دلالته فيسأل نفسه :

[illegible]
اعاقر مثل ذات رحيم
او غانم مثل بين بجيل

العاقر رمز الفناء وذات الرحم رمز الحياة ، غانم النلجح فى الحياة رمز لتاكد الحياة بالاستمرار والتفوق ، والخيبة رمز لانهزام الحياة امام الفناء والتحول [illegible]

ولكن هل يستويان فى الميزان ؟ هل تستوى الحياة والفنـــاء ؟

هل يستويان فى القيمة والدلالة ؟ ان الشاعر رغم احساسه العميق لسطوة البلى ، وسطوة الدهر الدوار على الحياة والاحياء ، لا ينكر نعمة هذه الحياة ولا ينكر قيمتها العظيمة ، (وهنا نجد انفسنا امام سمة من سمات الفكر العربى الاصيلة وهى التمسك بقيمة الحياة رغم مظاهر الفناء الشامل) ان هناك معنى الحياة ، وقيمة للتغير رغم الفناء الشامل الذى يستولى عليها فى النهاية ، ذلك ان هذا الفناء لا يلغى قيمة الحياة ، ولا يحيلها الى عبث مطلق ، فالحياة فى ذاتها قيمة لا يمكن نكرانها ، بل لا يمكن انكـــار تفوقهـــا واستعلائها على سطوة الفناء وجبروته ، ذلك ان الحياة تتمثل فى هذا الانتصار الدائب على العدم ، وهى تتمثل اساسا فى هذين العنصرين اللذين تقدم بهما ، واللذين يعطيانها قيمتها واستمرارها وتجددها فى نفس الوقت وهما : عنصر الخصب وعنصر النجاح ، فليست العاقر (رمز الجدب) كذات الرحم اى الولود (رمز الاستمرار والخصب والتجدد) ، وليس الخائب فى الحياة (رمز الاحباط والفشل والجهد المهدر) مثل الغانم (رمز النجاح والانتصار وتحقيق الحياة) فى هذه اللحظة التى يصل فيها الشاعر الى استخلاص قيمة الحياة من كل مظاهر الدمار الشامل ، يستولى على وجدانه ايمان عميق بالله الـــذى هـــو الضمان الحقيقى لانتصار الحياة المستمر على سنة الخراب والدمار ، ذلك ان الله يمثل فى يقين الشاعر البقاء وراء عالم الفناء ، والثبات وراء عالم التغير ، واليقين وراء عالم القلق والشك ، والخير الباقى وراء مظاهر العرض الزائل ومصدرا ابديا لافاضة صور الحياة والخير والتجدد على الحياة والاحياء (وهنا ايضا نجد انفسنا امام سمة اساسية من سمات الفكر العربى ، وهى الايمان العميق بالله ، بالذى يعطى الحيـــاة قيمتها التى لا تتمثل فى هذه المظاهر المادية المتغيرة ، وانما تتمثل فى قيمها الباقية ، التى سندرسها فى مبحث الاخلاق وهى المكارم والفضائل واخلاق المروءة ، وهى قيم باقية عندهم لا يلحقها الفناء ولا الزوال ، يوصى بها الآباء الابناء ويحرص الابناء على التمسك بهـــا وتوريثها لمن بعدهم) ، يقول عبيد فى ذلك :

مـــن يســـأل النـــاس يحرمـــوه
وســـائـــل اللـــه لا يخيـــب
باللـــه يـــدرك كـــل خيـــر
والقـــول فى بعضـــه تلبيـــب
واللـــه ليـــس لـــه شـــريـــك
ســـلام مـــا اخنـــت القلـــوب

فلا داعى للجزع امام مظاهر الفناء لان الباقى فيه خير عوض ، يعطى من يسأل ، ويمنح الخير لمن يعتمد عليه وليس احد غيره يفعل ذلك لانه ليس له شريك فى تصريفه ، وعلمه يصل الى خفايا القلوب حيث مستودع الحاجات والآمال والنوايا والعاقل هو الذى يتعظ بالدهر ، ولا يجزع امام سلطانه ، ولا يغفل فى نفس الوقت عن سطوته ، ان للحياة قانونها وهى لا تسير بارادتنا واهوائنا ، فقد تنعكس النتائج على المقدمات فيبلغ الضعيف الى هدفه مع ضعفه وعجزه ، ويقصر القوى من بلوغ هدفه مع قوته وحيلته ، وقد يخدع الاريب الذى يفهم ويحسن التقدير وينجح الغبى الذى لا يفهم ولا يحسن التقدير ، وذلك لاسبـــاب لا نعلمها لانـــا لا نعلم كـــل الاســـبـــاب ، وهـــى لا تخضع لمشيئتنا ، وجهلنا بالاسباب ، لا يعنى انها غير موجودة ، ومن تجاهلها لا ينفعه التجاهل ، لان آثار عملها واضحة فى الكون وعلى مر العصور ، وان يفلت من سلطانه لان احدا قبله لم يفلت به ولكن القلوب مع الاسف تعمى عن ادراك الحقائق الماثلة ، فلا تنتفع بالآيات الشاخصة للعيان ولا تعتبر بما جرى به الدهر على غيرها ، ومن عمى قلبه عن رؤية الآيات الواضحة فلن ينفعه وعظ الواعظين ، لان من لا يستطيع النظر ، لا يؤثر فيه الخير ، ذلك لان سجيات القلوب وطبائعها هى التى تتحكم فى يقظة الانسان وغفلته فمن طبعت سجيته على الغفلة لا يتيقظ ، ومن طبعت سجيته على اليقظة لا يحتاج الى واعظ ، ونحن لا نعرف شيئا عن سر هذه القلوب لانها تفاجئنا احيانا بعكس ما نتوقع منها فتحب من يجب ان تكرهه ، وتكره من يجب ان تحبه بلا سبب واضح معقول ، وهذا يعنى اننـــا لا نجهل فقط الاسباب التى تدور بها الحياة حولنا ، والتى ينجح بها الضعيف ويخيب الاريب ، دون سبب واضح معقول ، وانما يجهل ايضا هذه الاســـبـــاب الخفية فى قلوبنا نحن ، واذا كنا لا نفهم ذات قلوبنا فكيف نفهم سر الحياة الملغز من حولنا . ان علينا ان نفهم سنن التبدل والتغيير تعمل وان لم نفهم سرها فى قلوبنا ذاتها واذن فسننها عامة شاملة ، فعلينا ان نفعله فى كل مكان ولكل الناس ، ولا نحاول ان نكون

منطقيين دائما فى كل تصرفاتنا لان الحياة لا تخضع للمنطق كما نعرفه ، وانما نتصرف بمنطق خاص بها اسبابه مجهولة لنا ، فلا يقل احد مثلا اذا كان غريبا فى ارض غريبة ، ولماذا اساعد الاغراب الذين لا تربطنى بهم صلة ، لان المساعدة لا تكون الا للاهل والاقرباء والذين نعرفهم ان هذا منطق قاصر عن الادراك الشامل لسنن الوجود فى ربط الاسباب بالمسببات ، فلمساعد كل من يحتاج الى مساعدة لاننا لا نعلم من هو القريب ومن الغريب ، ومن هو العدو ومن هو الحبيب لانه لا يقين قط فى هذه الحياة ، وانما المشاهد بالتجربة هو العكس فالمرء ما عاش يفاجأ كل حين بخطأ ما ظنه صوابا ، وبباطل ماظنه حقا ، اذ كثيرا ما يعتقد فى صحة صداقة او عداوة ، او خلق فى احد من الناس ثم تاتى الايام فتعكس ظنه ، وتكذب اعتقاده ، وما طول الحياة للانسان الا زيادة عنائه وشقائه ، ومرة اخرى تعلو نبرة التشاؤم ، وتغلب المرارة على نفس الشاعر امام جهلنا الفاضح باسلوب تصريف الحياة الغامض ، وهذا ما يقوله الشاعر فى ابياته الآتية :

افلح بما شئت قد يبلغ
الضعيف وقد يخدع الاريب
لا يعظ الناس من لا يعظ
الدهر ولا ينفع التلبيب
الا سجيات ما القلوب
وكم يصيرن شائنا حبيب
ساعد بارض ان كنت فيها
ولا تقل انني غريب
قد يوصل النازح النائى وقد
يقطع ذو الهمة القريب
والمرء ما عاش فى تكذيب
طول الحياة له تعذيب

وفى المقاطع التالية من القصيدة يؤكد الشاعر يقينه فى سنة التبدل التى لا تتخلف من واقع تجربته الخاصة ، ومن واقع تجربة احياء غير انسانيين لتاكيد شمول سنة الفناء الذى يأتى دائما على الحياة مع كل الحيلة ومع كل المحاولة فيقول :

يا رب مساء وردت آجن
سبيله خائف جديب
ريش الحمام عاسى ارجائه
للقلب من خوفه وجيب
قطعته غدوة مشيحا
وصاحبى بادن خبوب
غير انه موجد قفارها
كان حاركها كثيب
اخلف بازل سديس
لا خفة هى ولا يغوب
كانها من حمير غاب
جون بصفحته تدوب
او شيب يرتمى الرخامى
تاطه شمال هبوب
فذاك عصر وقد ارانى
تحملنى نهدة سرحوب
مضير خلفها تغبيرا
ينشق عن وجهها السبيب
زيتية نائم عروقها
ولين ارسرها رطيب
كانها لقوة طلوب
تيبس فى وكرها القلوب
باتت على ارم عذوبا
كانها شيخة رقوب
فاصبحت فى غداة قر
يسقط عن ريشها الغريب
فابصرت ثعلبا سريعا
ودونه سبسب جديب
فنفضت ريشها وولت
وهى من نهضة قريب
فاشتال وارتاع من حسيس
ومثله يفعل المذءوب
فنهضت نحوه حثيثا
وحردت حردة تسيب
فدب من خلفها دبيبا
والعين حملاقها مقلوب
فادركته فطرحته
والصيد من تحتها مكروب
فجدلته فطرحته
فكدحت وجهه الجبوب
فغادرته فرفعته
فارسلته وهو مكروب
يضغو ومخلبها فى دفه

وهكذا انتهت القصيدة بهذا المشهد الفاجع المفاجيء ، ذلك ان مشهد الناقة الذى يأتى عادة بعد مشهد المقدمة تجسيد للارادة المنطلقة نحو هدفها بتصميم ، يأتى فى آخر هذه القصيدة معدولا عنه الى مشهد القوة الرقيب كأن الشاعر نسيه او تناساه ، وهذا من اعقد الاساليب التى تمرس بها الشاعر القديم (الجاهلى) الى حد الاعجاز فقد جرى استعمال الناقة فى الشعر القديم (الجاهلى) رمزا لارادة الشاعر المصمم على الوصول الى هدفه ، والذى لا يصرفه صارف عن ارادته الماضية فى تحقيق الحياة على شرط رغم ما يشاهده من سطوة مظاهر البلى على الحياة، لان ركوب الناقة يأتى دائما بعد الوقوف على الاطلال وحديث الذكريات التى ذهبت وذهب اصحابها وطواها الزمن السيار ، ان الشاعر وان كان يعتبر بالفناء والتبدل الا انه لا يسمح له بأن يلويه عن عزمه لانه يرى الحياة دعوة اخرى من الفناء ، ويرى فيها صورة اخرى وراء صورها المادية الزائلة هى صورة الحياة التى لاتبلى وهى حياة المكارم والامجاد ، ولكن عبيدا هنا يفاجئنا بالناقة فى مشهدين متتاليين كلاهما غريب، احدهما وهو الاول يبين عبث الجهد المبذول ، والثانى يستغرق نهاما فى مشهد يطويه هو مشهد القوة التى ترمز الى الدهر الدوار والزمن السيار ، وكأنه يقول : مهما حاولنا او جهدنا ومهما كانت قوتنا فالزمن يغلبنا ويطوينا ويضربنا ضربته الحتمية مهما بذلنا فى حبال الامهال .

فى مشهد الناقة الاول تصبح الناقة رمزا مأسويا يعين على تعميق الاحساس المهول بالفناء ويعبث المحاولة والجهد ، اذ نجد فيه الناقة القوية (رمز الارادة القوية) تقطع واديا مخوفا الى ماء آجن سبيله خائف جديب ريش الحمام على ارجائه .. رموز متتابعة للتغير المفضى الى الفناء . والشاعر لا يعرض هنا صورا من شجاعته واقدامه وقدرته على قهر الصعاب والمخاوف وانما يجسد لنا رهبته لهذا الوادى (للقلب من خوفه وجيب) وهو يقطعه (مشيحا) ، انه رمز لوادى الحياة نفسه ، ذلك الوادى المخوف المملوء بالمخاطر ، والذى لا أمن فيه ولا راحة . وبعد هذا المشهد المخوف ، يأتى لنا ذلك المشهد الفظيع الذى يعرى الحياة ، ويعرى فيها هذا الجانب الشارى ، اذى يفتك فيه القوى بالضعيف ، والذى يرمز اساسا الى فتك الدهر بالاحياء الضعاف ، وبدلا من أن يجسد الرمز التالى على الناقة قوة الناقة كما هو الشائع المألوف فى الشعر القديم (الجاهلى) جاء رمزا للقوة (العقاب) فابتلع الناقة (التى ترمز للارادة الانسانية) كما يبتلع الدهر حياة الاحياء والتى يرمز لها (الثعلب) ايضا ، وفى هذا المشهد يملأ الشاعر احساسنا بالفزع والرعب فالقوة (طلوب) لا يفوتها صيد تطلبه ، وما تطلبه مالك لا محالة ، وقد امتلأ وكرها (بالقلوب اليابسة) لضحاياها الكثيرين ، وهى تجلس جاسة مفزعة (كأنها شيخة رقوب ..) ، وقد اوقع الحظ النكد تحت بصرها فى ليلة باردة ذلك الثعلب المسكين فى ارض خلاء مبسوطة لا ملجأ فيها ولا مهرب ، فلما ابصرته نفضت ريشها فارتاع الثعلب من حسيسها وحاول الهرب فلم تعجل نفسه وراءه لانها واثقة انه لن يفلت (فنهضت نحوه حثيثا) فى صورة مرعبة « وحردت حردة تسيب » فأدرك الثعلب الفزع (ودب خلفها دبيبا والعير حملاقها مقلوب) ولكنها ادركته فطرحته وهو مكروب ثم عاودت فجدلته فطرحته فكدحت وجهه الجبوب ثم عاودت فرفعته فأرسلته وهو مكروب . ثم انشبت فيه مخالبها فأخذ يضغو من الالم ويحاول التخلص ولكن هيهات (لابد حيزومه — صدره — منقوب) :

نهاية مفجعة لمشهد مرعب يسدل عليها الستار ، وتنتهى بها القصيدة . !! وقف الشاعر فى اول القصيدة يتأمل آثار الفناء ، وانتهى بعرض هذا المشهد المروع للنهاية المحتومة للاحياء ، وعبر رحلة القصيدة عرض لنا الشاعر الفناء فى صوره المتعددة ، وعبرة التغير فيه ، ثم استعلاء الحياة كقيمة رغم حتمية الفناء ، تناقضاتها التى هى تفسير لها . داعيا الى بذل الخير والمعروف لانه القيمة الحقيقية الباقية فى عالم التناقضات (التكذيب) ، متخذا من ايمانه بالله تفريجا لحلقة اليأس التى يمكن أن تستحكم شمول سنة البلى والفناء والاحباط ، داعيا الى التبصير ، واخذ العبرة ، وعدم الانخداع بالمظاهر مؤكدا درامية النهاية فى ان التبدل وزوال الحياة هو سنة الوجود الذى يحكمه الدهر الدوار والزمن السيار .

الحيـــــاة :

على الرغم من هذا الادراك العميق لقانون الحركة المتمثلة فى الدهر او الزمن وفى لزوم التغير

والتبدل والفناء ، على الرغم من ذلك اخذ العرب الحياة بقوة وعزم واقبال ، والذى يتامل تركيب القصيدة الطللية يلاحظ ان القسم الثانى منها هو الركوب (الناقة غالبا او الفرس) ويبدأ مشهد الركوب عادة بما يؤكد ان الشاعر مصمم على تحقيق ارادته ما دام الوقوف على الماضى الذاهب لا يعيده الى الحياة ولذلك جعل الناقة رمزا لهمته وعزيمته القوية التى يحقق بها هدفه فى الحياة .

يقول طرفة بعد مشهد الوقوف وذكرياته فى المعلقة :

وانى لامضى الهم عند احتضاره
بعوجاء مرقال تروح وتغتدى

ويقول لبيد فى المعلقة بعد مشهد الاطلال وذكرياته

فاقطع لبانة من تعرض وصله
ولشر واصل خلة صرامها
واحب المجامل بالجزيل وصرمه
باق اذا ظلعت وزاغ قوامها

ويقول النابغة فى المعلقة بعد مشهد الاطلال :

فعد عما ترى اذ لا ارتجاع له
وانم القعود فى عيرانة اجد

ويدعو امرؤ القيس فى شعره دعوة قوية الى التمتع بالحياة لانها فانية ومن ذلك قوله :

تمتع من الدنيا فانك فان
من النشوات والنساء الحسان (5)

ويدعو طرفة الى اخذ الحياة بقوة ، واقتحام المخاطر ، والتمتع باللذات فيقول فى معلقته :

الا ايهذا اللائمى احضر الوغى
وان اشهد اللذات هل انت مخلدى(6)
فان كنت لا تستطيع دفع منيتى
فدعنى ابادرها بما ملكت يدى

وقد بذل العرب جهدهم لتحقيق الصورة الثانية وهى الصورة التى تصوروها باقية لا يلحقها الفناء والمتمثلة فى المكارم ، والتى سنتحدث عنها تفصيلا فى مبحث الاخلاق ؛ ذلك لان ملاحظتهم ، لسنة التغير ، وزوال الحياة ؛ وقصر العمر ، وذهاب الشباب والغنى ، دفعهم الى التماس قيمة باقية للحياة فى عالم المتغيرات ، ولما لم تكن لهم عقيدة فى البحث او الحياة الآخرة ، فقد دفعهم ذلك الى التماس قيمة الحياة فى الحياة نفسها ، اى قيمة تستعصى على البلى ، ولذلك نراهم يضحون بالحياة الزائلة من اجل هذه الحياة التى تصوروها خالدة ، اى انهم قالوا بالخلود على طريقتهم اى الخلود فى صالح الاعمال ، وعظائم الامور التى يتحدث بها الناس بعد موت اصحابها ، والتى راوها جديرة ببذل الحياة من اجلها ، اى طلب الموت من اجل الخلود بالذكر ، رايناهم يخافون السبة والعار اكثر مما يخافون الموت ، يقول الشنفرى :

اذا ما اتتنى ميتة لم ابالها
ولم تذر خالاتى الدموع وعمتى
الا لا تعدنى ان تسكبت خلتى
شفانى باعلاذى البريقين عدوتى
وانى لحلو ان اريدت حلاوتى
ومر اذا نفسى العزوف استمرت
ابى لما ابى سريع مبادتى
الى كل نفس تنتحى فى مسرتى (7)

ويقول تابط شرا :

سدد خلالك من مال تجمعه
حتى تلاقى الذى كل امرىء لاق
اتقر عين الفتى من ندم
اذا تذكرت يوما بعض اخلاق(8)

ويقول عروة بن الورد :

اقلى على اللوم يا ابنة منذر
ونامى فان لم تشتهى النوم فاسهرى
ذريني ونفسى ام حسان انني
بها قبل الا املك البيع مشترى
احاديث تبقى والفتى غير خالد
اذا هو امسى هامة تحت صير(9)

العلية والاتفاق والحرية :

تخلص من كل ما سبق الى ان العرب قد ادركوا للوجود فى مختلف ظواهره وجودا وعدما وتغيرا ونموا الخ ، عللا واسبابا ، وان العالم لا يقوم على الاتفاق او المصادفة ، وانهم ميزوابين نوعين من العلل هى : علل الخلق والتدبير ، وعلل الضرورة والطبيعة .

1 ــ علل الخلق والتدبير :

فالعالم كله مخلوق ابتداء وعلى مثال سابق من العدم باذن الله ومشيئته ، فهو اذن حادث فى الزمان من عدم محض ، ولم يسالوا كيف ومتى ، لانهم لم يروا فى ذلك مشقة على الله القادر على كل شىء والذى يخلق بمحض المشيئة يقول للشىء كن فيكون، ولم يجدوا عندهم فى الكيفية علما يتولون به ، لانهم لم يشهدوا الخلق ، ولم يروا ذلك مستحيلا فى عقولهم لانهم لم يدعوا لها علم المطلق والكلى ، او الاحاطة بالغيب ، والعالم لم يخلق مرة واحدة ولكنه يخلق اطوارا ، وخلق الله دائم ابدا ، متجدد ابدا ، والعالم مدبر بالله ابدا ، لا يستغنى عنه بضرورة ، ولا طبيعة ، ولا ما شابه ذلك .

2 ــ علل الضرورة والطبيعة :

والمخلوقات مفطورة على طبيعة وشكل وصورة تنمو عليه ، وتحيا عليه وتلزمه فى وجودها ، ولكنها طبائع وفطر ليست من ذات نفسها وانما هى مما اودعه الخالق فيها ، فالضرورة من الله لا من الاشياء.

الزمان والدهر والحركة :

والزمان او الدهر (الحركة) هو محل التغير والتبدل والوجود والعدم ، والزمان لا يتغير الا على المجاز لا على الحقيقة ، فالاشياء تتغير فيه ولا تتغير به ، لان المتصرف هو الله . **والاسباب منها معلوم ومجهول** : ونحن لا نفهم دائما الاسباب التى تتغير بها الاشياء وتتغير لها الاشياء ، وكما قال عبيد ، هناك خائب يغنم ، وخامل يفوز بدون سبب ظاهر ، واذن فهناك اتفاق او مصادفة فى الحظوظ ، وفى النصيب ، لانها لا تخضع لسبب مفهوم واذا كانوا قد ردوا ذلك الى الدهر « فقالوا ريب الدهر ، وبيد الدهر » . فان ذلك لا يعنى انهم عبدوا الها اسمه الدهر كما توهم جواد على (10) ، وانما ذلك يعنى فى ضوء كل ما ذكرناه انه قد جرى به الدهر ، وقد صور امرؤ القيس هذا الاتفاق (الصدفة) فى الحظوظ الذى لم يفهموا اسبابه تصويرا مفصلا فى قوله : (11)

من هنا لى من صديق فليعد
ليعدنى اننى اليوم كمد
من خطوب تركتنى قلقا
قلق المحور بالكف المد
بيتنى بهموم شرع
خلست نومى واخذتنى السهد
ليت شعرى وليست نبوة
اين صار الروح اذ بان الجسد
بينما المرء شهاب ثاقب
ضرب الدهر سناه فخمد
يخدع الجلد ويودى جهرة
ويقود الموت للحين الاسد
وابينا المرء يهوى قدما
افسد الدهر غناه فافسد
وبجهد يتنفس عيشه
عاضه الدهر ثراء فنجد
لا يضر العجز ذا الجد ولا
ينفع المحروم ايضاع وكد
ناعم فى اهله ذو غبطة
ومناص عيش سوء فى كبد
ركب اللج الى اللج الى
غمرات البحر ذى الموت الاشد
حين ارسى كل من يعرفه
وارتمى الآذى منه بالزبد
عاجز الحيلة مستمر القوى
جاءه الدهر بمال وولد
ولبيب ايد ذو حيلة
محكم المرة مأمون العقد
حصه الدهر وغطى حزمه
وانتضاه من عبيد وسبد

الحرية :

على ان الايمان بتقدير الله وتدبيره ، وبفطر

الاشياء وطبائعها وبعمل الدهر وسطوته ، كل ذلك لم يدفع بالعرب الى اليأس لانه لم يبلغ فى تصورهم الحرية ، ولذا نجد ان شعرهم كله دعوة الى الفعل ، والشجاعة واقتحام المخاطر وبذل الاموال ، وتحقيق المطامع بالارادة والعزيمة والهمة التى هى محور الشعر كما سبق القول بل ان الايمان بالله وقدرته وتعريفه وسننه وفطرته للاشياء جعلهم متوكلين لا متواكلين ، لانهم قالوا : اذا كان كل شىء يجرى بقضاء وقدر فلماذا الخوف من الموت وهو واقع لا محالة ، ولماذا الضيق بالمال وهو مال الله يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء ، وبالاضافة الى النصوص التى سجلها المعجم والتى رويناها لبعضهم فى بذل الحياة من اجل المكارم نضيف بعض النصوص التى تؤكد المعنى وتقطع فى نفس الوقت بأن ايمان العرب قبل الاسلام كان ايمان المتوكلين لا ايمان المتواكلين ، يقول عروة بن الورد :

ارى ام حسان الغداة تلومنى
تخوفنى الاعداء والنفس اخوف
لعل الذى خوفتنا من امامنا
يصادفه فى اهله المتخلف (12)

ويقول ايضا :

ذرينى اطوف فى البلاد لعلنى
اخلبك او اغنيك عن سوء محضرى
فان فاز سهم للمنية لم اكن
جزوعا وهل من ذاك من متاخر
لكم خلف ادبار البيوت ومنظر(13)
وان فاز سهمى كنتكم عن متاعد

ويقول ايضا :

ولله صعلوك صفيحة وجهه
كضوء شهاب القابس المتنور
مطلا على اعدائه يزجرونه
بساحتهم زجر المنيح المشهر
وان بعد الايامون اقترابه
تشوق اهل الغائب المنتظر
فذلك ان يلق المنية يلقها
حميدا وان يستغن يوما فاجدر(14)

ويقول الشنفرى :

دعينى وقولى بعدما شئت اننى
سيغدى بنعش مرة فاغيب (15)

لقد كانوا يؤمنون لا جهلا منهم بالقضاء والقدر ولكن ايمانا منهم بالقضاء والقدر ، ولولا ايمانهم بالحرية الانسانية لما اقدموا ولما دعوا الى العمل اذ كيف يعدم المقيد والعاجز ومن لا يستطيع ؟

لقد جعل عروة لنفسه سهما كسهم المنية فهما معا لفرسى رهان : الارادة والموت ، كل منهما يعمل ويستبق ، وان كان بالموت هو صاحب الجولة الاخيرة، ولكن الانسان الماجد يغلب الموت لانه يخلف من المحامد مالا يدركه البلى .

الوجود فى الفلسفة اليونانية :

الطبيعيون الاولون :

واولهم طاليس تتلمذ على المصريين وتأثر بهم كما تأثر بالبابليين ، وقال ان الماء هو المادة الاولى والجوهر الاول الذى تتكون منه الاشياء كما قالوا ، الا انه عزز رايه بالدليل . وقال بأن المادة حية لان العالم مملوء بالالهة المنبثة فيه . ثم انكسيمندريس رفض الاخذ بالماء كجوهر اول وفسر تكوين الاشياء تفسيرا (آليا) اى بمجرد اجتماع عناصر مادية وافتراقها بتاثير الحركة دون علة فاعلية متمايزة ودون غائية ، وقد اصطنع قصة كاملة فى نشأة الوجود وتطوره من المادة الى الاحياء فجعل التطور قانونا عاما تخرج به الاشياء من اللامتناهى ثم تدخل وتعود اليه ويتكرر الدور الى مالا نهاية والمادة اللامتناهية باقية غير حادثة ولا مندثرة . وقد مد الوجود الى غير حد فى المكان وفى الزمان . اما انكسيمانس فعاد الى القول بالمادة الاولى وهى شىء محسوس متجانس هو الهواء ، وان الموجودات تحدث فيه بالتكاثف والتخلخل . اى ان المدرسة الملطية اعتبرت المادة قديمة حية او متحركة بذاتها وتخيلتها تتحول الى صور الوجود المختلفة بموجب ضرورة طبيعية اى قانون ثابت . اما هرقليطس فقد قال بأن الاشياء فى تغير متصل وان النار هى المبدأ الاول الذى تصدر عنه الاشياء وترجع اليه ، والتغير صراع بين الامتداد ليحل بعضها